عناصر الإبداع الفني
بين وصية بشر بن المعتمر ووصية أبي تمام للبحتري
دراسة وموازنة

الباحثة/ أفراح عقيل أحمد اللحياني
محاضر (باحث دكتوراه) ــ تخصص(الأدب القديم)
قسم الأدب- كلية اللغة العربية
جامعة أم القرى- المملكة العربية السعودية

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة و السلام على أشرف المرسلين محمد ابن عبد الله الهادي الأمين، وبعد.

إنّ الإبداع الفني خلقٌ إنساني تضافر لإنتاجه شتّى الإمكانات والوسائل، وكلّ أمرٍ فريد التركيب، خاص الهويّة، تلتفّ حوله الأذرع وتتصاقب أليه الهمم، وتتكالبُ عليه العقول لتمحيصه و اكتشاف كنهه حتى تسكنَ فورة السؤال، و يهدأ قلق المعرفة، وكان هذا ما يدور داخل أسفار تراثنا العربي المجيد، الذي تلاقحت بين أرففه العقول، و تناحرت في أدراجه الفِكر العملاقة، فترك لنا القدماء تراثاً ساد كل تراث و ربى على كلّ إنجاز، لاسيما وإن غايته الأولى هي الفهم عن الله.

وبين طيّات هذه الورقة كشفٌ عن عقلين من أشاوسة الأدب، و عرضٌ لرأيهما في مدوّنة ابن رشيق[1] التي حفظت الدّر بين دفّتيها حين عرضت لجهود بشر بن المعتمر في صحيفته[2]، ووصيّة أبي تمام لتلميذه البحتري[3]، وخرجت هذه الورقة لتكشف عن عناصر الإبداع الفني في كلتا المدوّنتين، ثمّ عمدتْ إلى الموازنة بين رؤى المُدوِّنين في موضوعٍ مستقل، فتمت للورقة بذلك موضوعاتٍ ثلاث، ناقشتْها

(1) العمدة في محاسن الشعر وآدابه و نقده، ابن رشيق القيرواني،تحقيق:محي الدين عبد الحميد، دار الجيل-بيروت، ط٥، عام١٤٠١ه-١٩٨١م.

(2) السابق، ج١، ص٢١٢.

(3) السابق، ج٢، ص١١٤.

تِباعاً، وخرجتْ من كلّ موضوعٍ بباقة من النتائج والثمرات دُوِّنت في خاتمة البحث.

أولاً: عناصر الإبداع الفني في وصية بشر بن المعتمر:

هي في الحقيقة سبعة عناصر:

١. التهيئة.
٢. الميل إلى البساطة وكراهة التصنع.
٣. الميل إلى البساطة و البعد عن التعقيد والغموض.
٤. مراعاة التناسب والتلاؤم.
٥. التناسق بين اللفظ والمعنى والمتلقي.
٦. تفضيل الطبع على الصنعة.
٧. تحقيق التوازن داخل النص و خارجة.

وفيما يلي تفضيل العناصر وبيان لها..

١ - ١: التهيئة:

والتهيئة مرحلة إعداد النفس وترتيب الظروف المحيطة، ومفادها في قوله: "خذ من نفسك ساعة فراغك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسبا وأحسن في الأسماع وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ وأجلب لكل عين وغُرة من لفظ شريف ومعنى بديع"، وهذا يعني أن أول عناصر الإبداع هو تحيُّن أوقاته، و انتظار فتوحاته، وفي قوله: "خذ من نفسك": إشارة إلى أهمية التناول من النفس بما تجود به، و عدم اهتصرها عنوة، ثم يشير إلى ضرورة اقتناص فرصة فراغ النفس، ومن هذه الجملة نفيد فائدة أخرى و هي: حبس الشعور ساعة الفراغ له، فللنفس طاقة وفسحة، كما ان لها إحجامٌ وجفوة، فعلى المبدع الحصيف أن يتحيّن فرصة فراغ النفس ونشاطها، ليتمكّن من الشعور الحقيقي المصاحب للإبداع، فيختزنه في قوارير النّص المُنجَز، ويعض عليه بنواجذ في حروفه.

ولم يحدد ساعة بعينا لأن للمبدعين طقوس مختلفة، وأوقاتٌ زمنيّة للإبداع متباينة، و لكنه ركّز على فراغ النّفس، وهذا معهودٌ أمره إلى المبدع، الذي يجب عليه أن يتحسس نفسه، و يظفر بالشعور ساعة انكشافه لها. ذلك لأنّ الهجوم على الشعور لا يخفى على المستمع الراقي، كما أن إجهاض الإبداع لا يخفى، فعلى المبدع أن يُمهِل القطا حتى تأمن وتستأنس فيصطادها حيّة.

ثم أشار إلى امر آخر بالغ الأهمية يتعلّق بفراغ البال، وهذا يعني التصومع في حرم الإبداع، والانصراف عن كل ما يكدّ الذهن و يستنزف طاقته، ففراغ البال يسهّل على المبدع سياسة النّفس و بالتالي تهيّأت له سُبُل الإجابة، وهذا يشير إلى أنه يرى أن المبدع الحق هو منَ تجود نفسه إذا نشطت وفرغ بالها، لا من يهيّئ النفس و يفرّغها لتجود. وفراغ البال هنا بحاجة إلى استثناء، فالفراغ المقصود فراغٌ من كل شيء إلاّ من قضية الإبداع، فخلو الذّهن قمينٌ بالإنتاج المكثّف.

وعِداد الثمرات الطيّبة من الجملتين الوارفتين، وهما قاعدتين في غاية الأهمية لبلوغ الإبداع هما: الصبر لحبس بؤرة الشعور ثمّ التركيز فيه.

وهذا بلا شك سينتج نصّاً فائق الإحساس، على درجة عالية من الوعي والتركيز والنضج. كما نلاحظ الترتيب المنطقي فنشاط الذهن في أمرٍ معيّن، تعزله بعطاء شفاف عن أمور أخرى تزاحمه في التفكير وبالتالي يفرغ الذهن إلاّ من قضية الإبداع فتحصل الإجابة. وهذه استراتيجية نافذة المفعول في مجال الإبداع.

ثمّ قام بِشر بالكشف عن أسباب التوصية بهذين الأمرين اللذين اشترطهما على المرسل، فقال:

أ. فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسبا: وهذا يعني أن الساعة التي سخّرها المبدع لإبداعه قد يطول مُخرجها وقد يقصُر، و في كلٍ خير، وعلى المبدع إلاّ يحتقر قليلها، مادام المبدع قد أخذ بالأسباب ووحّد مفترق الطرق. لأنّ قليلها أكرم مضموناً؛ فإن المعاني التي يقتنصها المبدع في هذه الساعة تكون على درجة عالية من الصدق الفنّي لأنه بذل في سبيلها التركيز والصبر حتى تواتيه لحظة المخاض الحقيقة، وأدنى ألاّ يرتاب المستمع في تمييزها، فإنتاج هذه الساعة حتى لو كان قليلاً فإنه يحمل من مقومات الإبداع ما يحمله على أن يكون ذا مضمونٍ كريم وحسب شريف، و كرم المضمون منظورٌ إليه من ناحيتين هما: الشرف والعطاء. وهو بهذا التعليل يركّز على قطبٍ من اقطاب العملية الإبداعية وهو: النّص أو الرسالة.

ب. وأحسن في الأسماع وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ: وهذا سبب آخر لوضع الشرطين الأولين، وذلك ليكون المنتج أولاً: أحسن في الأسماع، فينساب في الأذن كحديث الروح، و ينفد إلى القلب حلواً، فبِشر في هذا التعليل

انتقل إلى المتلقي المرسل إليه، و رشّح ان يكون تأثير النّص على عضوين: هما السمع و القلب، فالسمع قناة التواصل اللفظي، والقلب منزلة عليا في الوعي، فبعض الكلام يلامس السمع و يذوي، أمّا بعضه فيتجاوز السمع إلى القلب فيقر فيه. و كما ان اختياره للتفضيل موفقاً، فالحسن يُرى بالبصر، والحلاوة تذاق باللسان، و لكنّه ليأخذ بتلابيب الحواس أهدى للسمع ما البصر به أحق ليؤدي وظيفتين، و أهدى للقلب ما هو للسان أولى، لسيطر على كل قنوات التّواصل، ثم ذكر انه (أسلم من فاحش الخطأ)، و هذا غير مستغرب من مُنتج أُنتج بوعي و تركيز و صبر.

ج. وأجلب لكل عين وغُرة من لفظ شريف ومعنى بديع: وهو في هذه الجملة يعود ليناقش حال الرسالة ، التي تكون مع توافر تلك الشروط الشروط أجلب لعيون اللفاظ الشريفة، وأجلبُ لغرّة المعاني البديعة.

٢ - ١: الميل إلى الطبع و كراهة التصنّع:

وذلك مستفاد من قوله: "واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة المجاهدة، وبالتكلف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه". ففي قوله:(واعلم) إغراء بالتماس الطريق الأول لأنّه أجدى و التسامي عن الثاني الذي سيصفه بعدها، فإنّ سلوك المبدع مسلك السلامة الذي أشار إليه في مطلع الوصيّة، سينتج عنه نصاً مكتمل الإحساس و باذخ الجمال ودقيق التعبير، لكونه أخذ بأسباب الإجادة، و لكن تختلف قرائح الشعراء فمنهم طويل النفس من تجود قريحته بالوفير ومنهم قصيرها من يجود بالطل، فيذكر بِشر أنه يجب أن يعلم الجميع أن ما ينتج من اقتناص تلك الساعة أنفعُ مما يعطيك يومك كله، مع الكد و المجاهدة والمطاولة، هذا مفهوم من قوله: "خذ من نفسك ساعة فراغك"، فالمبدع المطبوع مع الفكرة يجب أن يكون صبوراً حذقاً، ولا يجهد عقله بالكدّ والمطاولة والمجاهدة، فالخارج من النفس بإرادتها غير ما يخرج منها عنوة، لذلك كره ثلاثة أمور هي:

١. الكد: (الجهد) و كراهته للكد لا تتنافي مع بذل الجهد و سمو الاختيار، و لكن الكد المكروه هو الذي يُفقد الفكرة صدقها الفني، ويجرّدها من الإرادة. فإن العمل الإبداعي مجهودٌ ذهني، و كدحٌ عقلي، و لكن المقصود بهذا الكدح هو

الكدح المنتِج وليس المحرض على الإنتاج، فهو جهدٌ في أثناء الإبداع و ليس قبله.

٢. والمطاولة: (التمطيط) إن المستمع الحصيف لا يُخطِئ مواضع التطويل التي يجنح إليها الشاعر كي يعبر عن فكرة معيّنة، و ذلك لظهورها في أفق التعبير ولكنه تعجّل لأخذها دون أن يمهلها حتى تكتمل.

٣. والمجاهدة: (الإجبار) ويقصد بها تجاوز الحد في رياضة النفس، و حملها على ما تكره، وفي هذا ليّ لأذرعة الإرادة، و هذا عينه ما يتنافى مع الطبع ومدخل للصنعة، وقسرٌ للموهبة.

٤. وبالتكلف: (التحبير)وهو تكليف النفس أكبر مما في وُسعها، و مضاعفة طاقتها.

٥. المعاودة: (التكرار) ويقصد به معاودة الكر في نفس المضمار، لتحبير الفكرة.

فإذا تحلل الإبداع من الكد و المطاولة و المجاهدة والتكلف و المعاودة، ظهر سلساً موافقاً للطبع، مطابقاً لما في النفس، وكلما تحلل من هذه القيود وقر إبداعه في نفس المتلقي. وكان اظهر للموهبة و اكمل للتجربة. ورفضه لهذه الخمسة الأمور لا يعني خلو الإبداع الفني منها تماماً، بل المطلوب هنا الأخذ من كل واحدة بمقدار يعزز اكتمال الموهبة و نضجها بقصد، دون مجاوزة الحد في الصنع و التعبير.

وفي قوله: "ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه"، يعني أنه مهما فاتك من أمر إذا تنازلت عن هذه الآفات الخمس فإنك قد ربحتَ القبول و الخفة، و هذا أقصى ما يطمح إليه المبدع ان بكون كلامه مقبولاً منه و من الجمهور أجمعه، فيكون بذلك كلامك كأنه خارجٌ من ينبوعه، وناجمٌ من معدنه، و هذا يدلُّ على:

أولاً: الاختيار والطواعية في قوله: (خرج)، فالمعنى خرج و لم يُخرج.

ثانياً: السخاء المعني في قوله: من ينبوعه، و الينبوع ينضح بالماء العذب الذي اختزنته الأرض فترة بعد المطر.

ثالثاً: الصبر، فالماء لا يتفجر عينه من باطن الأرض بفعل قوة خارجية، فمتى ما ارتفع منسوب الماء، وضاقت به الأرض ثم تفجرت عيوناً و تشعّب العيون جداولاً و ينابيعاً في الأرض.

رابعاً: الأصالة ونقاء النسب، و هو مفادٌ من قوله نجم من معدنه، فالإنتاج يجب ان يُجتزأ من روح المبدع و ثقافته و بيئته، ويعود نسبه إليه.

٣-١: الميل إلى البساطة والبعد عن الغموض والتعقيد:

وهذا العنصر مستفادٌ من قوله: "وإياك والتوعر، فإن التوعر يسْلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك. ويشين ألفاظك". في قوله: (إيّاك)، تحذير بعد الإغراء السابق، و بِشر هنا يحذر من محاذير تترتّب على خطأ المدخل، فإذا ما أجبرت النفس على القول، فهذا جرمٌ يترتّب عليه إنتاج نكدٌ وعر معقّد.

والتوعّر من ابشع ما تُوصف به طريقة للتعبير، فالوعورة ضد السهولة، و الوعر من الأماكن العسيرة، و المياسير أقرب للنفس من أضدادها. فصنع للتنفير منها سلسلة أحداثٍ يفضي بعضها إلى بعض، فالتماسك للوعر من سبل التعبير، يُسلمُ رقبتكَ إلى التعقيد اللفظي و المعنوي، فلا سلامة منه من التعقيد ما دام التوعر سبيل التعبير. وهنا تظهر مفارقة مهمّة، لخطيْن متوازيين:

أ	ب	ج	د	هـ	و
خذ	من نفسك ساعة فراغك، وفراغ البال وإجابتها إياك	فإن قليل تلك الساعة	أكرم وأشرف واحلى وأسلم وأجلب	قصداً خفيفاً سهلاً	خرج من ينبوعه، ونجم من معدنه
يعطيك	بالكد و والمطاولة والمجاهدة والمعاودة والتكلف	يومك الأطول	التوعّر	مستهلك ومشين	معقد اللفظي والمعنوي

الجدول (أ)

فالعمود (أ) يضع اليد على الفرق بين الحالين الأخذ والعطاء، وكلامهما معنيان بالتناول، و لكن كل كلمة تدل على طرف من عملية التداول، فالأخذ بحق و العطاء بفضل، وهذه الخصوصية صرّفت المعاني التالية، فإذا تحيّنت فراغ النفس كنت مستحقاً للأخذ والغرف، لكون المبدع قدّم تهيئة تليق بالمأخوذ، أمّا العطاء فهو هبة ومنّة، و اليد العليا خير من اليد السفلى. والمختار هنا أن يوافق المبدع طبعه، فالنفس بلا شكّ

ستمنحه اختياراً، فهي إذا آنست نشاطاً و راحة جادت، والشرط هنا أن يتحسس جلاء المعنى في النفس في وقت نشاطها. وهذا فنّ قيادة النّفس وإجادة فهمها.

والعمود (ب)، يكشف عن العامل الفاعل في إحداث الفارق بين الأخذ و العطاء، فإذا نشطت النفس أمكنتك ان تأخذ منها، أمّا إذا جمحت وتوسّلتها بطرق غير مشروعة كالكد و المجاهدة و المطاولة و التكلف فإنها لن تمنعك و لكنها ستعطيك ولا تجود.

والعمود (ج) يوضّح الفارق الزمني الذي يستغرقه الإنتاج، فما تجود به الساعة الموافقة للطبع، يعادل يوماً طويلاً من الكد و الجهد.

امّا في العمود (د) فإنّه يصف الإنتاج الناجم عن تلك الساعة و ذلك اليوم الأطول، فالساعة الهادئة المطمئنّة ستكون ثمرتها بلا شك أكمل مبنًى و معنى، وعلى الطرف الآخر يقع الوعر من المسالك، الذي كان بوّابة لأمور أخرى ترتّبت عليها في العمودين (ه-و).

أمّا العمود(ه) فيظهر فيه المُنتج السليم المسلك بحالة ممتازة مقصداً وخفة على السمع وسهولة في التلقي والعرض، أمّا المسلك الوعر النَّكد الذي تخطى المبدع لأجله صعوباتٌ كثيرة فإنّه لا يسلم من الوقوع في المعاني المستهلكة و شين الألفاظ، بل هو حريٌ به لكونه اغتصب الفكرة قبل ان يتبرّج له في معرض الفكر.

والعمود (و) تصف حال المنتج أيضاً فإذا توافرت له أسباب القبول خرج من ينبوعه، ونجم من معدنه، و هذا يدلّ على المطابقة والتوافق، أمّا إذا التمس المبدع الطريق الآخر فإنّه يخرج النّص معقداً.

٤ - ١: مراعاة التناسب والتلاؤم:

"ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما" . وهذا القول يفتح أبواباً واسعة من أبواب النقد والأدب، وهي:

أولهما: المطابقة: والمطابقة هنا معنية بأن تكسو أبهة المعنى ألفاظه، من تدنّي مستوى الذوق أن يعبر المبدع عن شريف المعاني بسوقي الألفاظ، وهنا تبرز مهارة المبدع وحذقه و تمكّنه من موهبته، فالمبدع الحق هو من يحيك لمعانيه ما يليق بها من الألفاظ، و يؤديها من الكلم، و هو أيضا من اتّسع معجمه حتى أتيحت له فرصة الاختيار

والترجيح، أما من ضاق معجمه جاء نصّه مختلف الأطرار[1] غير متناسق الأطراف. لأنّ الألفاظ قد سيقت للمعاني ولم تتخير المعاني ألفاظها الأيق بها.

والثاني: التناسب والتلاؤم: إن المبدع لابد أن يكون على درجة عالية الحس الذي يتيح له فرصة إحداث التناسب في نصّه، و مظاهر التناسب كثيرة منها: تناسب الأبيات، والصور، و التراكيب، والمعاني و الألفاظ، ويهمنا أن تسلط الضوء على التناسب الظاهر بين المعاني و الألفاظ داخل النّص القائم على اختيار اللفظ الشريف للمعنى الشريف، و هذا -بلا شك- يجعل النص متّزناً.

والثالث: الذكاء والاختيار: وهذا مزيّة في المبدع ومسؤولية على عاتقه، فالمثقف واسع الكلم لا تُعجزُه المعاني، فلا تجد الكلمة قلقة في مكانها نابية عن معانها، بل إن سعة ثقافته و امتداد بحر كلمه تمكنه من وضع الرقعة على الفتق، و الدواء في موضع الألم دون كد و لا مجاهدة و لا مطاولة و لا تكلّف. فقد قدّم من الأمور ما يستدرّ به نفسه فلا بدّ ان تجود بقدرها.

٥-١: التناسق بين اللفظ و المعنى والمتلقي:

ومستخلصٌ من قوله: "فكن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . ...فأنت البليغ التام".

فقد جرى التعبير في هذا الجانب عن تفاوت مقامات الناس الذين تتفاوت معهم درجة الألفاظ و المعاني، التفاوت ليس في درجة الأداء إنّما في طريقته و أسلوبه. و الأمور التي يجب مراعاتها باعتبار الجمهور المقصود، فأحدث فروقاً معنوية بين:

١. خطاب العامة
٢. خطاب الخاصة
٣. خطاب العامة بما يخاطب به الخاصة

وبشكل عام فالألفاظ لابدّ ان تكون رشيقة و فخمة وسهلة وعذبة و أما المعاني فلابدّ أن تكون مكشوفة ظاهرة قريبة معروفة، و لكن السؤال هنا: إذا كان هذا النمط السائد المأمول، فاين تظهر مراعات احوال المخاطبين؟ لقد أجاب بِشر على هذا التساؤل حين قال: " إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن

---

(١) النواحي.

كنت للعامة أردت " فإذا خاطبت العامة فالتمس من المعاني و الألفاظ ما يؤثر فيهم، والخاصة كذلك، ما يدلّ على قاعدة: مخاطبة الناس على أقدار عقولهم، و هذا هو مناط التفاوت و الإحسان. فشرف المعنى ليش شرفاً في نفسه بس في سياقه واعتبار متلقيه.

وقد فصل في هذا الأمر حين قال: " والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي والخاص ." ونجده قد وضع لشرف المعنى أربعة شروط:

١. الصواب: يعني تحري الصحّة الشعورية و التعبيرية و التركيبية أيضاَ
٢. إحراز المنفعة: يعني حصول الفائدة و انعدام العبثيّة.
٣. موافقة الحال: موافقة الحال النفسية التي يقع الجمهور تحت وطئتها.
٤. موافقة المقال: و المقام يشيب ربه إلى مستويات السامعين.

٦ - ١: تفضيل الطبع على الصنعة:

وذلك مستفادٌ من قوله: " فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسنح لك عند أول نظرك وفي أول تكلفك ..... لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة والمحبة".

إن من أميز ما ناقشه في هذا المضمار، قدرة المبدع على الأداء، وموافات قريحته حال استدرارها، دون الوقوع في ملهباتها، فذكر أن المبدع الذي اعتادت نفسه على كد الذهن و إلهاب القريحة إنما وقع في ذلك بسبب قلة تعاطي الشعر، و لم يرفع من مستوى ذائقته باختيار الكلام المنثور، فإن تكلّف قريحته و لم يكن حاذقاً مطبوعاً حاق به العيب و ارتفع عليه غيره، وبعض المبدعين مبتلى بالتكلّف والصنعة فإنه مخرجه منها ألاّ يتعجّل ولا يضجر وأن يمهل النّفس يوماً ثم يعاقر الإبداع مرة أخرى، وإذا تمنّعت عليك الفكرة و راغ القول عن قلبك فانشغل عنها بأمر صناعة من الصناعات، و هنا تحِل قاعدة كبرى و هي : التخلية قبل التحلية، فإذا انصرفت عن أمره انصرافاً كليّاً فإنك لا تعدم امتلاء النفس به إذا أقبلت عليه بعد انصراف، وهيّئ لنفسك أسباب الإبداع فإن فلا تُبدع تحت وطأت شعور الرهبة أو الرغبة، فقط تحلل من كل هذه الأمور و ابدأ بما تجود به نفسك مع شهوة و حب.

وبشرٌ في هذه الصحيفة ينفر من التكلّف و يمدّ للمبدع حبال الطبع قدر المستطاع، ويحاول أن يخلّص المبدع من سيطرته، فالطبع سلسٌ و أقرب للنفس وأولى للقبول و الإقبال.

٧-١: تحقيق التوازن داخل النّص وخارجه:

وهذه الوصية مستقاة من قوله: "وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، .....ولذلك قالوا : العرض والجوهر وأيس وليس ، وفرقوا بين البطلان والتلاشي، وذكروا الهذية والهوية الماهية وأشباه ذلك".

وهو ينبه فيها على أهمية فراسة المبدع و تنبؤه و معرفته لأقدار الناس، لأن المبدع الذي يملك زمان موهبته يدرك بخبرته كيف يقول ومتى يقول ولمن يقول، كل هذه أمور لا تُعلّم إنّما تدرك بالخبرة و الفراسة و الذوق، القادرة على تقدير الأشياء مقاديرها.

وهذا هو التوازن الذي يخلقه الشاعر داخل أسوار القصيدة و خارجها، فالتقدير السليم هو الذي يمكّن كل كلم و كل فكرة وقافية و صورة كانها الذي هو أليق بها هي أحق به. ثم عرض لحال المتكلّمين من الخطباء و على الحصيف ان يقيس ذلك على غيرهم من أرباب العلوم، فيذكر ان الخطيب إذا كان متكلماً كان عليه ان يتجنّب كلام المتكلمين حتى لا يكون الكلام دُولة بين المتكلمين و يخفى على غيرهم.

ثانياً: عناصر الإبداع الفني وصية أبي تمام للبحتري:

وقد استنبطتُ من الوصية ثلاثة عناصر هي:

١. التهيئة.
٢. الصنعة.
٣. التقليد.

١-٢: التهيئة:

لقد ذكر ابو تمام لتلميذه البحتري أهمية اختيار الوقت المناسب للإبداع، حين قال: "يا أبا عبادة، تخير الأوقات وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم".

فالإبداع عنده حالة شعورية لابدّ ان تتوافر أسبابها حتى تكون، فأولى الأسباب قلة الهموم والغموم، تُفرغُ القلب من الدنيا و تقطعه في محراب الإبداع، هذا من الأمور التي تفهم بملوازمها فإذا فرغت النفس مما يؤرقها كان الإبداع على رأس القائمة، لأن أمور الدنيا تنزاح عن دائرة التركيز إذا سلط الشخص على تركيزه ما يراه أولى، ولم يكتفِ الموصي بالتهيئة النفسية، بل نجده يعرض للتهيئة الزمنية أيضاً ويوصي باغتنام وقت السحر، لإنجازين و لسببين، فالإنجازين هما: التأليف و الحفظ، و كلاهما من اعمال العقل، اما السببين فهما: لأن النفس اخذت قسطها من الراحة و النوم، و الفترة التي تعقب الراحة والنوم تورث النفس طاقاً وإقبالاً على شؤونها.

وقال في موضعٍ آخر: " وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب"، وهذا مجال واسع للتعبير عن أهمية تهيئة النفس لإبداع و تجنّب إقحامها في ساحته، فيذكر أن إذا ضقت ذرعاً فلا تجامل على حساب النّص و مستواه لفظاً ومعنى، إنّما الحل هو أن تريح نفسك، و لك أن تتخير للنفس ما يريحها ويُسكنُ غيظها، و لا تعمل في النّص إلاّ وقلبك فارغ إلاّ من قضية الإبداع، حتى تسخر لها كل طاقاتك الشعورية و الفكرية.

٢-٢: الصنعة:

قال فيها: "فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا، والمعنى رشيقا، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، وإذا أخذت في مدح سيد ذي

أياد فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معالمه، وشرف مقامه، وتقاض المعاني، واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام".

والموصي هنا يذكر الطرق الموصلة إلى الغايات، و السبل المؤدية إلى الأهداف، فيؤثث كل طريق بدابّته، وأن يفطن المبدع إلى الشكل و المضمون، فإذا قصد النسيب فإنّ عليه أن يجمع أسبابه و يتزوّد بزاده، فلا بد أن يتخير رشيق الألفاظ و رشيق المعاني، و الرشاقة هنا تعني الخفة و الظُّرف و الطرب، التي تبعث النشوة في النفس. امّا إذا قصد مدح سيد من السادة فإنّ طريقك إلى بلوغ ذلك أن تشهر مناقبه و عليك أن تقاض المعاني وهو هنا يرفع من قيمة الرقابة الذاتية و النقد الشخصي، فعلى الشاعر أن يشقق معانيه و يفحص بناءها ويبتعد عن المجاهيل منها و المجهول سوءة تبدو في المجهول غير المعلوم، او المجهول الصعب الوعر من المعاني. أمّا الألفاظ فلابدّ ان يتخير في المدح الألفاظ الرنانة الفخمة البعيدة عن الزرية والاحتقار.

ثمّ يعقّب تعقيباً يُظهر منهجه في الشعر فيقول: "وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام". فالشاعر عنده صانعٌ كأصحاب الصناعات الأخرى فمثله مثل الخياط الذي يقطع الثياب على مقادير الأشياء، و هنا تتجلى أهمية صفاتٍ ثلاث:

الأولى: الوعي: فالإبداع عنده مهارة يقوم بها المبدع في حالة وعيٍ كامل.

والثانية: الخبرة: التي تظهر من قوله: يقطّع الثياب، فالمبدع لا يكون سلساً في تقطيع الألفاظ و المعاني، حتى تكون لدية خبرة واسعة بمواضع القطع و الوصل.

والثالثة: التناسب: وهذا يبدو في قوله: على مقادير الأجسام، فالتناسب مهمّ لخلق الإبداع.

٣ - ٢: التقليد:

"واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه؛ فإن الشهوة نعم المعين، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين: فما استحسنته العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله تعالى".

إنّ من أهم شروط الصنعة التي ذكرها أبو تمام، هو:

١. الرغبة: والرغبة هنا رغبة مقصورة على الإبداع، وهذا يعني أنّ شهوة القول والإحسان فيه هي حد ذاتها لازمٌ من لوازم الإبداع التي يتوجب على المبدع

توخيها. فالشهوة كما ذكر هي نعم المعين، والمقصود إن يقصد الإبداع و في ذهنه الرغبة فيه.

٢. التقليد: ويعني ان يترسّم في شعره خطى القدماء ويزنُ الكلام بميزانهم، لا ان يحذو حذوهم بلا تفكير، فاعتبار ما كان عليه السلف، مخالف لمعنى التبعيّة العمياء.

٣. الاحتكام والقياس: وهو هنا يظهر في إجماع العلماء على الاستحسان او الاستهجان، فلم يوكل الأمر إلى العامة بس نقَدّة الشعر عنده من الخواص فقط فما استحسنته النخبة، كان عليه ان تستحسنه، و ما رفضته فإنه لزام عليك ان تتجنّبه، لأن أذواقهم مؤثرة في الرأي العام، و رؤاهم سارية المفعول في الناس. كما أن الناس تحتكم إلى أذواق علمائها إذا اختلفوا في التقييم بينهم، والأمر الأخير أن العلماء لا يعتمدون على الذوق الصِرف كالعامة بل يقيمون لكل أمرٍ وزنه و تعاليله.

ثالثاً: الموازنة بين الوصيتين:

إن هناك مجموعة من المعاقد التي تتجلى فيها اوجه الموازنة بين الوصيّتين خارجيّة وداخلية، وسنبدأ بالخارجيّة:

١-٣: العنوان و العنوان الأكبر:

هناك فوارق بين المدونين فإحداهما صحيفة و اسم مدونها بلا مرسل إليه و هي: (صحيفة بشر بن المعتمر)، و الأخرى أسماها: وصية، مع وجود المرسل و المرسل إليه، و هذه نقطة تحتاج إلى بيان، فبشر بن المعتمر دوّن هذه الصحيفة لعموم المبدعين، حين وجد في نفسه القدرة على إنشادهم، و شعر أن لديه ما يقال في هذا المضمار فقال قولته، فإن إجلاله للعقل و دعمه لحرية الرأي خوّله لتدوين هذه الصحيفة، أمّا أبو تمام فهو شاعر ذكي مبدع، جمع إلى الطبع صنعة و حرفيّة، اهتمّ ان ينقل البحتري من الطبع و القول بالفطر إلى مرحلة العلم، ليكون شاعراً و عالماً بالشعر.

أمّا عنوان الباب فإنّ ابن رشيق أثبت نصّ صحيفة بشر بن المعتمر في باب: عمل الشعر، وشحذ القريحة له[1]. بينما وصية أبي تمام للبحتري، فقد أثبتها في باب: أغراض الشعر و صنوفه. فالولى وردت في بابٍ يُعنى بحرفية الصناعة، و توفير الطاقات الداعية للإنتاج، أمّا إيراده لوصيّة أبي تمام فقد جاءت في معرض التصنيف والتقسيم لأغراض الشعر، فابن رشيق التفت للموضوع الأبرز في كلا المدوّنتين، فالأولى كانت تدور حول التجربة الإبداعية بشكل عام، أمّا الثانية فقد سخرها أبو تمام للشعر و الشعراء.

٢-٣: اختصاصها الإبداعي:

إن صحيفة بشر تناولت الإبداع الفني باعتباره حالة فريدة لها مقوماتها و مضاعفاتها، وسلط الضوء فيها على المبدع مع مراعاة الجوانب الأخرى إلا ان تركيزه كان على المبدع، أمّا أبو تمام فكان في وصيته يعتبر الطبع مرحلة يمكن تجاوزها إلى الصنعة، وقد اهتمت بالشعر خاصة لسببين رئيسيين هما: مراعاة حال السائل والتحدّث من بؤرة الاختصاص و صميم الصنعة.

---

(1) العمدة، ح١، ص٢٠٤.

٣-٣: الطول و القصر:

يظهر للناظر طول صحيفة بشر بن المعتمر بينما جاءت وصية أبي تمام قصيرة، وكان ذلك مبنياً أساساً على مجموعة من نقاط الاختلاف:

نقاط الاختلاف:	صحيفة بشر بن المعتمر	وصية أبو تمام للبحتري
١. الموضوع:	الإبداع الفني الأدبي بشكل عام	الإبداع في الشعر
٢.أسلوبها:	التكرار	الإيجاز
٣.عرضها:	الشرح و التفصيل والتقسيم	الإشارة و التنبيه
٤.أدواتها :	التعبير المباشر	استعمال الصورة

الجدول (ب)

أمّا الفروقات الداخليّة فإنّها تدور في ثلاثة مدارات:

الأولى: المــُرسل بين بشر بن المعتمر و أبي تمام:

لقد اعتنى كلاً من الرجلين بتهيئة المرسل لإنجاز الرسالة، و وفّرا له أسباب الإبداع الصحيحة، والتفاتهم لها يوضح أهميّة مرحلة التهيئة السابقة للإبداع، و على الرغم من إجماعهما على ضرورة التهيئة إلاّ أن ثمتَ فروق بين الرجلين فيها، فقد كان لكلٍ منهما طريقة في التهيئة للإبداع ركز فيها بشر على النفس بينما جمع فيها أبو تمام بين التهيئة النفسية و الزمنية.

وقد اعتنى بِشر في مواضع أخرى بألفاظ الإبداع و معانيه بينما كان اهتمام أبي تمام مسيطر على الموضوع و سبيل التناسب بين الغرض و المعاني المؤدية و ألفاظها.

أمّا عنايتهم بالطبع و الصنعة، كانت عناية بشر بالطبع واضحة بل جعلها مدار التفاضل و محك الإبداع، أمّا أبو تمام الطبع عنده مرحلة سابقة للصنعة، والدليل على ذلك أن ابن رشي يقول في بداية الوصية: " قال أبو عُبادةَ الوليدةُ بن عبيدِ البُحْتري: كُنتُ في حَداثَتي أَرُومُ الشِّعْرَ، وكنتُ أَرجِعُ فيهِ إلى طَبْع، ولَمْ أكُنْ أَقِفُ على تَسْهيلِ مَأْخَذِه، ووجُوهِ اقْتِضابِه، حتى قصدتُ أبا تَمَّامٍ، وانقطعتُ فيه إليه، واتَّكَلْتُ في تَعريفِه عليه؛ فكانَ أوّلَ ما قال لي:"

فالواضح ان أبا تمام رأى أن البحتري يقول الشعر بطبعه فأراد أن ينقله لصناعة الشعر وسُبل العلم و الدراية و الحذق فيه بهذه الوصية. وكانت في المدوّنتين مجموعة من الألفاظ التي ترشّح عناية كلّ منهما برأيه، فبشر اعتنى بالطبع و أبوتمام اعتنى بالصنعة وبالصانع و تعامل مع الإبداع كصناعة:

فقرة	صحيفة بشر بن المعتمر	وصية أبو تمام للبحتري
أ.	خذ من نفسك ساعة فراغك	تخير الأوقات وأنت قليل الهموم
ب.	إجابتها	اجعل وأكثر
ج.	فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير طول إهمال..أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك،	وإذا عارَضَكَ الضَّجَرُ؛ فأَرِحْ نَفْسَك، ولا تعملْ شِعْرَكَ إلاَّ وأنتَ فارغ القَلْب
د.	تواتيك وتعتريك وتسنح	واجْعَلْ شَهْوَتَكَ لقولِ الشِّعْرِ الذَّريعةَ إلى حُسْنِ نَظْمِه؛ فإنَّ الشَّهْوةَ نِعْمَ المُعين.

الجدول(ج)

وفي هذا الجدول بيان لأوجه الاختلاف بين مدرستي المدوِّنين، ففي فقرة (أ) يظهر تعامل بِشر مع الذات المبدعة وعلاقتها بالإبداع فالإبداع يؤخذ من النّفس، في وقتٍ تهيّأت فيه أسباب الإبداع، أمّا أبو تمام فإنه يرى أنه من الممكن أن تتوافر أوقات للإبداع، و الواجبُ هو أن يتخير المبدع الأوقات الخالية من الهموم و الغموم. وهنا اختلاف بين المُدَونين، فالأول يأخذ من وقت، و الثاني يتخير من الأوقات.

أمّا في الفقرة (ب) فالواضح عند بشر تفضل النّفس و إجابتها للمبدع بعد التهيئة، أمّا أبو تمام فيدخل في غمار الإبداع و كأن الحصول كائن لامحالة، ويصرف اهتمام المبدع إلى الجعل و الإكثار، فالمسألة عنده إرادية لادخل للهوى فيها.

وبيان الفرق الظاهر من الفقرة (ج) هو ان النفس عن بشر تتمنّع ويعزّ على المبدع مطلبه، فالحلّ عنده في هذه المشكلة ان تنصرف عن الإبداع إلى صناعة من الصناعات هي احبّ الصناعات إلى نفسك، ثمّ تعاود الكرة مرة أخرى، أمّا الحل الذي

قدّمه أبو تمام في نفس هذه العوارض ان يريح نفسه إذا ضجرت، وهذا يدلّ على ان المبدع إذا فترت همّته لا يحق له الانصراف عن أجواء النّص بالكليّة إنّما يريح نفسه من الكدّ ثمّ يرجع إذا فرغ قلبه. وفي قول أبي تمام جملة هامّة تصف منهاجه، هي قوله (ولا تعمل شعرك)، و العمل في القصيدة يخرجه من إطار الارتجال و الإنشاد إلى التنضيد و التجميل و التحبير وهذا مفادٌ من كلمة العمل.

أمّا الاختلاف الظاهر بين المُدَونَين في الفقرة (د) فإنّ سافر في استجابة النفس وجودها عند بشر الذي تعامل معها بألفاظ تقرّبها من الأمور قليل المقام على الأرض، والتي تومض و سرعان ما تختفي إذا لم تحسن التقاطها، و ذلك في قوله (تعتريك وتواتيك وتسنح)، فهذه الكلمات تنقل لنا شعوراً يطابق إحساسنا بالضيف الذي لا يلبث حتى يودّع، اما أبو تمام فالصنعة عنده ممسكة بزمام الأمور و مسيطرة على القريحة فيحق له ان يقول: اجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة لنظمه. وهذا يعني أنك تنظم القصيدة وتحت سلطة شهوة الإنشاد، وحاضر في ذهنك الرغبة في الإبداع.

الثانية: الرسالة بين بشر بن المعتمر و ابي تمام:

سخر بشر ابن المعتمر اهتمامه بالألفاظ والمعاني ونعوتها وتراكيبها داخل قالب النّص، ومهّد السبيل إلى السلامة من التوعّر والتعقيد، وأبو تمام فقد كان يضع الغرض نصب عينيه ويجعله المحرض على قول الشعر و اختيار ألفاظه و معانيه. ومنح المبدع الحق في تقطيع الألفاظ على أقدار الأجسام. وتتلخّص العلاقة بين المبدع و الإبداع عند أبي تمام هي علاقة بين الصانع و المصنوع، أمّا عند ابن المعتمر فهي العلاقة بين الفريسة و الصياد، كما أراها.

الثالثة: المستقبِل بين بشر بن المعتمر و أبي تمام:

لقد أولى بشر بن المعتمر عناية كبرى بالجمهور المتلقي، و اعتنى بتصنيفه أمام المبدع فخطاب العامة لا يطابق خطاب الخاصة و إذا خاطبت العوام بما يخاطب به الخواص فإنك لا تسلم من بعض المحاذير و المطالب، امّا أبو تمام فلم يعتني بالجمهور، فقد كان همّه الغرض والموضوع مدار الإبداع.

الخاتمة:

الحمدُ لله و الصلاة و السلام على رسول الله، لقد تمت هذه الورقة بخاتمتها التي يُعرض فيها أبرز النتائج والثمرات، فقد كشف الموضوع الأول عن منهجية خاصة ببشر بن المعتمر عرضها في صحيفته، ووضحت الصحيفة أبعاد الإبداع عنده، كما حصدت الدراسة أبرزُ عناصر الإبداع فالفني من وجهة نظره، التي يراها مناط تفاصل ونقطة سيادة، ثمّ تناول الموضوع الثاني وصية ابي تمام للبحتري، وكشفت دراستها عن أبرز عناصر الإبداع الفني التي يراها أبو تمام، أما الموضوع الثالث فقد أماط اللثام عن نقاط الالتقاء و الافتراق بين المدوّنين، ووضعت اليد على جملة من الأسباب الداعية لهذا التّوجّه المختار من داخل المدّونة، وقد ركزت الدراسة على المدوّنتين دون أن تفعّل أي سلطة خارجة سواء كانت اجتماعية او ثقافية أو مذهبية، صوب إنتاجهما، بل تحررت الدراسة من كل العوامل الخارجة عن النّص وكثفت هودها للكشف عن منهجية التفكير التحليلي الناقد عندهما و أثره على النّصين.